

مقاربة سيميائية لرمز المرأة الجزائرية في الشعر العربي "جميلة بوحيرد أنموذجاً"

الأستاذ : معاش علي
قسم اللغة العربية و أدائها
كلية الآداب و اللغات
جامعة بسكرة- (الجزائر)

Abstract:

I will try in this article to highlight the role of the symbol as a special trait in modernist poetic experience that tends toward Hermeneutics, introspection and detection, ambiguity and complexity, and how women are reflected as a symbol that have a privacy in the Algerian revolution "Djamila BOUHIRE" considering the revolution an entire symbol of all revolutions in the world and « Djamila » an entire symbol for all women, trying to unveil the aesthetic side of this symbol in Arabic poetry in general and in particular in the Algerian poetry .

ملخص:

سأحاول في هذا المقال إبراز دور الرمز كميزة خاصة في التجربة الشعرية الحديثة التي تفتح نحو الإيعاز والاستبطان و الكشف والغموض والتعقيد، و كيف تتجلى المرأة كرمز له خصوصية في الثورة الجزائرية " جميلة بوحيرد " باعتبار الثورة رمزاً كلياً لكل الثورات في العالم وجميلة رمزاً كلياً لكل النساء؛ محاولين الكشف عن جاليات هذا الرمز في الشعر العربي عمومًا والشعر الجزائري خصوصاً .

مقدمة :

تعد الثورة الجزائرية المعاصرة قدوة للكثير من شعوب العالم في تحريرها وانفجار ثوراتها ضد أشكال القمع الاستعماري، وما كان يقوم به ضد الإنسانية من جرائم لم تسلم الأرض منها، مثلما لم يسلم الإنسان؛ فنهبت الأرض وهربت كنوزها، واحتكرت خيراتها من قبل الاستعماريين، والمعمرين، كما سلبت حرية الشعوب وعُبت بثقافتها و تاريخها، ومقوماتها الروحية والمادية.

وكانت الثورة الجزائرية درة في تاج الحركات التحررية في العالم، فضربت أروع الأمثلة لكفاح شعب أعزل لا يملك شيئا سوى كرامته وتوقه للحرية، يقف في وجه إحدى أسوء الدول الاستعمارية التي عرفها تاريخنا المعاصر، ليخرجها من أرضه بعد أزيد من مائة وثلاثين سنة من الظلم والقهر والقتل (1).

وقد كان للثورة الجزائرية أثرا عميقا في مختلف الأشكال الأدبية والفنية: كالمرسح، السينما، الغناء، الشعر، والقصة، والرواية، والمثل، والشعر الشعبي؛ فأسالت هذه الثورة الكثير من الحبر وحركت حوافز الإبداع لدى الأدباء بمختلف أصنافهم، ولعل للشعر حصة الأسد في ذلك، فلم يبق شاعر مشهور أو مغمور إلا وتفاعل مع الثورة المجيدة وبطولات رجالها ونساءها، حتى أنه يمكننا القول دون مبالغة بأنه لا يوجد شاعر عربي من المحيط إلى الخليج عاصر انفجارات الثورة الجزائرية، ولم تهزه أحداثها ويتفاعل معها، فيكتب فيها قصيدة أو أكثر، بل يوجد من الشعراء من كتب ديوانا كاملا في الثورة الجزائرية و يوجد من الشعراء العرب من علا صيته، واقترن اسمه بالثورة الجزائرية، كفدي زكريا، محمد العيد آل خليفة... الخ ومن الأسباب التي حفزت الشعراء العرب ممن عاصروا الثورة الجزائرية على الإقدام على التغني بها، وبأبطالها الميامين؛ أنهم رأوا فيها الأمل المنشود والينبوع الصافي الذي تعب منه الشعوب العربية وغيرها منه مبادئها وقيمها من أجل التخلص من جميع أشكال العبودية والاحتلال، وذلك بجمعها بين القيم الروحية السامية، والكفاح المسلح الذي لا يتردد في استعمال وسائل العنف ضد المستعمرين وحلفائهم (2).

وسنحاول في هذا المقال مقاربة بعض النصوص التي تناولت المرأة كرمزٍ مثقلٍ بالدلالات المختلفة معتمدين الدراسة السيميائية؛ كونها الأنسب و الأقرب لهذا النوع من الدراسات محاولين الكشف عن الإيحاءات والدلالات اللامحدودة لهذا الرمز. وكيف تتجلى المرأة كرمز له خصوصية في الثورة الجزائرية باعتبارها الرمز الكلي لكل الثورات والمرأة رمز جزئي لها؟ وكيف تتحول المرأة إلى رمز رئيس تتفرع منه رموز جزئية تشكل لنا بناءً فنياً وجمالياً للنصوص الشعرية .

1- المرأة الجزائرية والثورة :

لقد أحست المرأة الجزائرية بداية الكفاح المسلح بأن فجر أول نوفمبر هو تجسيد لحقيقة حية تحمل في طياتها أملاً باسماء للمرأة بصفة خاصة ومنطلقاً لانبعاث شخصيتها العربية ولتحقيق وجودها وممارسة حقوقها وواجباتها فأضاءت لها هذه الثورة الطريق، وهيات لها الوسيلة والأسلوب، فكانت تصنع الأحداث، تطعم وتسقي وتعالج، وتحمل الرشاش وتسطر الملاحم في الجبال والمدامر والمدن؛ وقد سجلت المرأة الجزائرية حضورها إلى جانب أخيها الرجل هذا التاريخ بمختلف مراحلها، بمساهمتها الفعالة، حيث خلدت لنا قائمة طويلة من الأسماء العظيمة، التي كانت وما تزال مثالا للشجاعة والبطولة والتضحية، بما قدمته من صبر وتحمل ومثابرة ومقاومة سواء كانت مربية، مسبلة، فدائية ممرضة أو مجاهدة(3).

كما انفتحت أمامها آفاق جديدة كانت مغلقة قبل الثورة؛ حيث كانت سبجينة الظروف الخارجية والرجعية وضحية أوضاع التأخر والجهل التي خلفها الاستعمار، وحبيسة تقاليد واهية وقيود ثقيلة ساعد على تثبيتها وجود الاستعمار؛ وأدركت المرأة الجزائرية أن المشاركة الإيجابية في الكفاح المسلح هي الوسيلة الفعالة الوحيدة التي تمكنها من إثبات شخصيتها ووجودها(4) .

فاندفعت إلى مهمة النضال الشاق تشارك الرجل جنباً إلى جنب في تحرير الوطن، وتتحمل نفس الأعباء الجسمية في سبيل تحقيق مستقبله، فهي مناضلة في جبهة التحرير، وجندية في جيش التحرير الوطني، تؤدي مهمتها بشجاعة وجرأة، وتركب الأخطار بإرادة صلبة، وبقلب مؤمن مستبشر، وتواجه أساليب التعذيب الرهيبة بصمود ثوري

حقق لها البطولة؛ فالمرأة فدائية في المدن تلقي القذائف على المقاهي والأماكن التي يرتادها العدو؛ كما تقوم بدور ضابط الاتصال بين مختلف خلايا الثورة، فهي جندي في الجبال تحمل البندقية والرشاش وتشارك في المعارك، وتسعف الجرحى، وتعد الأكل واللباس للجنود، وتقوم بدور ضابط سياسة، ومرشدة اجتماعية في القرى والبوادي، فكانت تتحمل مهماتها هذه التي تنطوي على مشاق وصعاب كثيرة في المدن حيث الرعب القاتل وأساليب التعذيب الرهيبة، وفي الجبال والأرياف حيث الأهوال ومآسي حرب الإبادة الجماعية المنظمة؛ تتحملها وكلها سعادة وأمل لأنها تصنع مصيرها بيدها وتخطط وتنشق طريقها نحو الحياة بإرادتها وكفاحها وتشارك في تحرير شعبها بطاقتها وإمكانياتها الفعالة (5).

عموما فإن المرأة الجزائرية استطاعت أن تثبت ذاتها في الثورة الجزائرية واستحققت أن تكون رمزا يحتذى به في نضال المرأة بمختلف أنحاء العالم.

2- جميلة والثورة الجزائرية :

لقد سجلت النساء الجزائريات بنضالهن وصمودهن وإرادتهن صفحات خالدة في تاريخ البطولة والتضحية والفداء، وسوف تظل قصص نضالهن إشعاعا هائلا يضيء للأجيال القادمة طريق الكرامة والحرية والتحرر (6)، يقول "سليمان العيسى" في قصيدة "جميلة بوحيرد الرمز" :

وَأَنْتِ يَا أُسْطُورَةَ الصَّخْرَاءِ، يَا نِدَاءَ

مَا زَالَ فِي قُلُوبِنَا يُفَجِّرُ الصَّيَاءَ.

يَا نَجْمَةَ الصُّبْحِ الَّتِي يَتِمُّثُ الصَّبَاحُ

مُنْذُ اخْتَفَّتْ فِي ظُلْمَةِ السَّجُونِ

وَمَرَّتِ السَّنُونُ

وَعَرَسَتْ قَوَافِلَ، وَارْتَاكَ مَدِيحُونَ

وَلَمْ يَزَلْ يَبْحَثُ عَنْ نَجْمَةِ الصَّبَاحِ لِتُشْرِقَ النَّجُومُ

وَتُورِقَ الْكَرومُ

وَيَصْضَحُكَ الزَّيْتُوقُ مَلءَ السَّهْلِ، وَالْأَقَاخِ (7).

يكشف لنا الشاعر مجموعة من الدلالات التي تفصح عن قصة هذه المرأة الرمز وكيف برهنت للعالم نضالها وتضحياتها في سبيل الوطن، وكيف أرعبت جنرالات فرنسا ودوّخت ضباط مخبراتها وقهرت حديد الطغاة وحيّرت بطش الاستعمار؛ إنها الآية الكبرى لنضال الشعب العربي في أرض الجزائر العربية الباسلة التي كتب لها النصر المبين؛ إنها أسطورة الصحراء بل نجمة الصباح كما عبر عنها الشاعر في هذه الأبيات.

كما أن "جميلة بوحيرد" مثال للفتاة الثورية في طليعة من بنيت عليهن الثورة؛ وأنها نموذج حي من نماذج الأبطال وصانعي التاريخ، فكانت الوجهة الخالد من وجوه أعظم ثورة في تاريخ العالم ضد الاستعمار الغاشم، وجميلة هي الرمز المقدس للجهاد وبأسمى معانيه من وطنية ملتزمة إلى شجاعة مغامرة إلى صبر أيوبي عجيب على الآلام والعذاب كما يقول الشاعر السوري: "محمد سعيد الكيلاني" في قصيدته "جميلة":

جَمِيلَتِي يَا أَمَلِ الْجَزَائِرِ	يَا شَهَقَةَ الْأَخْرَارِ وَالْخَزَائِرِ
لَا تَيْأَسِي فَالْصَبْحُ يَوْمًا قَادِمٌ	وإن طَوْتُهُ ظُلْمَةُ الدِّيَابِجِ
تَقْدِمِي إِلَى الْعُلَا تَقْدِمِي	وَأَشْعِلِي النَّارَ لِشَعْبٍ ثَائِرِ
وَحَطِيي كَبُرَ عَنَادٌ وَاهْزَجِي	وَأَنْتِ فِي الْأَصْفَاءِ لَا تُحَاذِرِي
يَا أُمَّ الْأَعْدَاءِ لَا تَسْتَأْسِرِي	عَدَوْتُ أُضْحُوكةَ دَهْرٍ سَاخِرِ
فَاسْتَوْرِدِي مَا شِئْتُ مِنْ دَبَابَةِ	وَلْتَأْتِ (دَفَاعَاتِ) (اِيْزَنْهَاور)
نَحْنُ الَّذِينَ كُلُّتْ هَامَاتُنَا	بِالْعَارِ إِزْنًا كَأَنَّ عَنْ كَابِرٍ عَنْ كَابِرِ
إن شِئْتُ كَسَبَ الْحَرْبِ فِي الْجَزَائِرِ وَلَاتِ فَاثِقِي مَدْنًا وَقَامِرِي (8) .	

ومن أمثلة أمهاتنا الأشاوس، المجاهدات الثلاث اللواتي جمع بينهن القدر في خصوصيات ثلاث: الأسماء (جميلة) مع سابقة الألقاب (بو) والشجاعة والتضحية من أجل الغاية النبيلة، إذ حكمت عليهن المحكمة العسكرية الفرنسية بالإعدام عام 1957، بسبب حملهن حقائب المتفجرات إهن: جميلة بوحيرد، جميلة بوباشا، و جميلة بوعزة(9).

حيث سطرن الملاحم بالعذاب والنار ملهات الشعراء والمبدعين إلى حد الأسطورة والرمز، وذلك بطولية وتضحية .

3- تجليات رمز المرأة :

أ- مفهوم الرمز:

الرمز « Symbol » ظاهرة بلاغية حديثة، اكتسبت سلطة على المبدع والقارئ، وهو ميزة في الصورة الحدائية تجعلها تبدو مختلفة أكثر عن الصورة القديمة، ومن ثم أصبح الشعر الحديث "تجربة ذات طبيعة خاصة، تنجح نحو الإيعاز والاستبطان والكشف والشمولية والمغايرة، و اللاحدد والانفعالية والكثافة والغموض والتعقيد والتعدد...."(10).

* الرمز لغة :

لقد ورد "الرمز" في معاجم اللغة العربية، وهو يحمل العديد من المعاني، وتشارك أغلبها في اعتباره الصوت الخفي الذي لا يكاد يفهم، أو هو الإشارة أو الإيماء بالشفقتين أو العنينين أو الحاجبين أو اليد أو اللسان أو الفم.

والرمز عند "ابن منظور" تصويت خفي باللسان كالمس، ويكون بتحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة صوت؛ إنما هو إشارة، وقيل الرمز إشارة وإيماء بالعينين والحاجبين والشفقتين والفم، و"الرمز" في اللغة كل ما أشرت إليه بيد أو عين ورمز، يرمز، رمزا".(11)

وقد جاء في القرآن الكريم في قصة سيدنا زكريا في قوله تعالى مخاطبا زكريا عليه السلام: ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۚ وَادْكُرُّ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾"(12).

وفيما ورد في تأويل "الرمز" في هذه الآية الكريمة أنه مقابل للإشارة، وبذلك قال صاحب الكشف: "إلا رمزا، إلا إشارة بيد أو رأس، أو غيرهما وأصله التحرك..."(13).

* الرمز اصطلاحا :

فإذا ما جئنا إلى الرمز كاشتغال نقدي وجدنا أن أول من تكلم عنه بمعناه الاصطلاحي هو الناقد "قدامة بن جعفر" (ت 337) خاصة في كتابه "نقد الشعر" قائلا: "هو أن يكون اللفظ العليل مشتملا على معاني كثيرة بإيماء إليها أو بلمحة تدل عليها".(14)

وتبعاً لذلك يمكن القول بأن الرمز وفق هذه الرؤية ما هو إلا: "صورة شيء محمولا إلى شيء بمقتضى التشاكل المجازي، بحيث تغدو لكل منها الشرعية في أن يَسْتَعْلَنَ في فضاء النص..." (15).

وللرمز معنى ظاهري مباشر وآخر باطني، وغير مباشر، إنه ثنائي كما يقول عنه "اسماعيل عز الدين": "يتضمن الحقيقي، والواقعي والخيالي، فهو ينطلق من الواقع ليتجاوزه ولا يرتبط به، كمشاكلة ومماثلة وتناظر، بل إسكانه له، وتحطيم لعلاقاته وإعادة تشكيل له عبر حدس شعري ورؤية ذاتية" (16).

على العموم فإن للرمز معنى ظاهري سطحي مباشر وآخر باطني غير مباشر وسنحاول أن نقف عند هذين النوعين في تحليل رمز جميلة بوحيرد فيما يلي :

ب- المرأة الرمز :

لقد كان لرمز المرأة اهتمام خاص لدى الشعراء العرب، وذلك بتوظيفه كمعادل موضوعي للوطن؛ إذ يعد تعبيرا منهم عن الحالة التي آلت إليها حالة الوطن، حيث لم يجدوا مخرجا للتعبير عن هذه الحالة إلا باستغلاهم للرمز المؤنث، الذي كثيرا ما شاع استعماله في الأشعار القديمة والحديثة حتى وإن كان هناك اختلاف في الطرق ووجهات النظر، لكن يبقى هذا الرمز يحمل طابعا مميزا، لا تخلو منه الصورة الشعرية في أغلب الحالات؛ لأنه يتميز بطابع جمالي خاص، لما يحمله من معاني الحياة وكون المرأة تمثل المشاعر والعواطف والأحاسيس الرقيقة التي تمكن الشعراء من استغلالها للتعبير عن الكثير من القضايا المتعلقة بالوطن، حيث يتسامى الاثنان في لغة حوارية راقية تحمل معاني سامية ومن أمثلة هؤلاء الشعراء الشاعر السعودي: "صالح الأحمد العثيمين" في قصيدته: "الجزائر المجاهدة" يقول:

أَرَاكَ كَالْقِمَّةِ السَّمَرَاءِ شَاهِقَةً

تَغْيَا وَتَقْصُرُ عَنْ إِدْرَاكِهَا الْمُقْلَ

وَقَفْتَ شَامِخَةً الْأَطْوَارِ عَالِيَةً

شَمَاءَ يَسْبَحُ فِيكَ الْيَأْسُ وَالْأَمَلُ

فِي مَسْبَحِ التَّجَمُّمِ فَلَكِ أَنْتَ رَوْقُهُ

سَامِي الذَّرَى رَفَّ فِيهِ الْوَيْلُ وَالْأَجَلُ
 قَدْ قُتِمَتْ فِي مَسْرِحِ الْحَدَثَانِ حَامِلَةٌ
 رُوحَ الْجِهَادِ فَمَا أَوْدَى بِكِ الْمَلَلُ
 حَامَتْ عَلَيْكَ الْمَنَائَا وَهِيَ عَابِسَةٌ
 وَدَارَ فَوْقَ رَبَّاكَ الظُّلْمُ وَالْدَجَلُ
 فَصَنَعَتْ مِنْ شُعْلَةِ الْإِيمَانِ أُمَّيْلَةً
 مِنْ الْكِفَاحِ وَلَيْلِ الشَّكِّ يَنْسُدِلُ
 سَطَّرَتْ فِي مَفْرَقِ التَّارِيخِ مَلْحَمَةٌ
 سِرَّ الْجِهَادِ بِهَا يَزْغِي وَيَشْتَعِلُ
 ثَارُوا -بُنُوك- وَفِي أَرْوَاحِهِمْ حَقٌّ
 عَلَى الدَّخِيلِ وَصَاعُوا الْمَجْدَ مَا اكْتُلُوا
 سَارُوا عَلَى لَفْحَاتِ النَّارِ صَاعِقَةً
 بِهَا هَزِيمَ الْبَلَى يَسْرِي وَيُنْتَقِلُ
 ثَارُوا بِوَجْهِ (جَبَانَ السَّيْنِ) عَاصِقَةً
 تَنْثُورُ (النَّقْعَ) فَالْدَيْئَابُ لَهُمْ خُولُ
 (وَلَمْ يَنْتَبِهْ قَرْمٌ) بِالْعَارِ مُلْتَحِفٌ
 وَمَا غَفَّتْ عَيْنُهُمُ وَالْثَّارُ يَرْجُلُ
 وَمَا تَرَامَتْ بِهِمْ فِي الْبَيْنِ حَادِثَةٌ
 إِلَّا اسْتَفَاقُوا وَحَادِي الظُّلْمِ يَنْتَهِلُ
 أَرْضُ الْجِهَادِ أَرَى الْأَعْدَاءَ مَائِلَةً
 فَمَنْ يَرُومُ الْعَلَاً بِالنَّارِ يَنْتَعِلُ (17) .

ففي هذه القصيدة الشعرية تحول "رمز الوطن والمرأة" إلى المقدس الذي يصبح
 الانتماء إليه عبادة وقرى، فلقد ربط الشاعر بين معاناة الوطن ومعاناة المرأة في الكثير من

الصور إلى درجة أن غدا في ذات الشاعر كالمطلق الذي لا يدنس، وبالتالي اكتسب كل معاني العلو والرفعة والسمو وهي ميزة جديدة في الصورة الشعرية الحديثة يضيف ويقول:
طَافَتْ عَلَى قَلْبِكَ الْجَبَّارِ مَذْبَحَةٌ

وَأَنْتِ... أَنْتِ اللَّطِي بِالْحَقِّ يَسْتَعِلُّ

يَا نَفْعَةٌ مِنْ عَبِيرِ الْخُلْدِ عَابِقَةٌ

قَوَى الْجِهَادَ فَلَا يَلْوِي بِكَ الشَّلَلُ

إِنَّا حَمَلْنَا قُلُوبًا كُلُّهَا أَلَمٌ

لَكَ الْفِدَاءُ إِذَا مَا أُعِيتَ الْجِيلُ

فَأَشْعِلِي ثَوْرَةَ حَمْرَاءَ لَاهِبَةٍ

تَذْرِي الْأَعَادِي وَمَا شَادُوا وَمَا عَمِلُوا

سَسَلْتَنِي فِي الْغَدِ الْمُؤْعُودِ يَحْمِلُنَا

عَزْمُ بَنَاهُ لَنَا أُمَجَادُنَا الْأَوَّلُ (18)

هنا شخص الوطن بـ "قلبك الجبار" وكأنه امرأة يخاطبها الشاعر فالتحم المحسوس بالملمس ليصبح الرمز ليس قيمة دلالية يتحدد المرموز فيها بكل تخومه كما هو شأن الإشارة "إنما هي قيمة إيحائية؛ توقع في النفس ما لا يمكن التعبير عنه بطريقة التسمية والتصريح" (19).

فالشاعر هنا يلتقي كثيرا في هذه التعابير مع شعراء الثورة الجزائرية في حمل هموم الوطن والتغني به على الرغم من جراحه فالوطن عبادة" (20).

فالرمز إذا يكسب الصورة طاقة دلالية ويعطي المبدع حرية أكبر في شحن الكلمة بالدلالة؛ ومن الصور الشعرية التي تقوم على الإحساس بالتفاؤل وبغد أفضل قول الشاعر:
سَسَلْتَنِي فِي الْغَدِ الْمُؤْعُودِ يَحْمِلُنَا

عَزْمُ بَنَاهُ أُمَجَادُنَا الْأَوَّلُ (21).

يؤسس الشاعر نصه هنا على الإحساس والوجدان، نتيجة نفسية متفائلة يشدها الواقع، فكلمة "يحملنا" هي رمز قام الشاعر بإفراغها من دلالتها المعجمية وشحنها بدلالة

إيحائية جديدة وغرضه إبهار المتلقي، لأن الرمز بعبارة أخرى ما يمكن أن يحيل شيء آخر في الدلالة عليه، لا بطريقة المطابقة التامة، وإنما بالإيحاء أو بوجود علاقة عرضية أو علاقة متعارف عليها" (22).

ج- جماليات الرمز:

إن مستويات الرمز تختلف من باحث إلى آخر، فلقد تباينت مصطلحاتهم وتقسيماهم بين البسيط والمركب والجزئي والكلّي، والخاص والعام...، فتشعب الرمز وتشعبت، ولكن لا تهمنا هذه الفروق والاختلافات بقدر ما يهمنا الجانب الفني الجمالي؛ وإن كنا مضطرين إلى اختيار تسمية محددة ارتأينا أن تكون: جملة رمز كلي وجزئي، لأن الرمز في كل أشكاله وأحواله يبقى رمزا وكفى، إما أن يوحى أو لا يوحى، إما أن يكون أو لا يكون، لأن الرمز يعد أفضل طريقة للإفضاء بما لا يمكن التعبير عنه وهو معين لا ينضب للإيحاء" (23).

وحين نلقي نظرة فاحصة لمستوى الرمز في بعض القصائد التي مجوزتنا تجعلنا مكرهين لا أبطلا على أن نفرق بين استعمالين رمزيين اثنين :

الأول: استغلال جزئي، بسيط، مفرد يميزه الوضوح الشديد وهو النوع الغالب.
الثاني: ترميز كلي، معقد، مركب، بؤري، تصب كل الصور الجزئية فيه، ليشكل رمزا عاما ومحوريا وهو النوع النادر، وهو الأمر الذي جعلنا مضطرين إلى اختيار قصيدة واحدة تمثل بها لهذا النوع، الذي يقتضي الاستشهاد فيه إبراز تكاثف الصور الجزئية وتلاحمها ليشكل بواسطتها رمزا أعلى (24).

فكيف كانت جملة في الرمز الجزئي، وكيف هي حالها كرمز كلي؟

* جملة بوحيد رمزا جزئيا :

ومن الشواهد على ذلك قول الشاعر 'أيوب صبري عباس' في قصيدته "يقين فتصميم" يمثل جملة على أنها "نغمة" يتغنى بمعانيها الأجيال ونغمة تفيض عذوبة ورقة لامرأة حنون ولكنها صاعقة ورعد وأعاصير.
وأذكر "جملة" نغمة أبدا بها الأبناء تشدو

إِنِّي الْجَمِيلَةُ... وَالتَّيْبَعُ أَنَا بِهِ أَرْجَحُ وَوَرَدَ
 إِنِّي أَنَا امْرَأَةٌ أَشَدَّ عَلَى الطَّعَاةِ قَدْ اسْتَبَدَّوْا
 مَاءً وَبَزْدٌ فِي الْحَيَاةِ، وَفِي الْوَعَى نَارٌ وَوَقْدٌ
 كَتَمْتُ الرِّقِيقَةَ كَفَّ وَالِدَةُ بَهَارٌ أُمٌّ وَسَعْدُ
 لَكِنَّمَا أَبَدًا عَلَى الْأَعْدَاءِ صَاعِقَةٌ وَرَعْدُ
 "رَشَاشَتِي" بِيَدِي، وَقَلْبِي مِنْ رِصَاصَتِهَا أَشَدُّ (25).

فهو يصف جميلة وصفا ماديا حسيا سطحيا لا غموض في هذا الوصف، فهو يحاول إبراز أهم الصفات التي تتميز بها من الصبر والقوة والتحمل ما جعلها رمزا لذلك؛ لأن الرمز الجزئي "ضيق الإيجاء بطبيعته" (26).

ويكاد يتكرر الرمز ذاته عند الشاعرة "حياة النهر" في قصيدتها "أعجاذ وبطولة" فهي تجعل جميلة نعمة قدسية عزفت على حين غفلة في ليل مظلم حالك، وفي صحراء موحشة، استوطنها الغزاة، وهي نعمة رومانسية تشكل من عبق الطبيعة (كالنهار، الليل، النبع، النهر، والموج...) هذا النبع الذي سودته فرنسا، وهذا النهر الذي بدلت صفاءه والموج الذي أصبح طوفانا والريح إعصارا وجميلة نعمة رومانسية ولدت من رحم الطبيعة الجزائرية فنقول :

يَا جَمِيلَةَ
 نَعْمَةٌ قُدُسِيَّةٌ رَنَّ صَدَاهَا
 فِي الْفَيَافِي وَالْمُرُوجِ
 فِي الصَّخَارِي الْمَوْحِشَاتِ
 حَيْثُ دَوَّى الْمُدْفَعُ الْحَاقِدُ
 هَارِجًا فِي بَرَّةٍ قُدُسِيَّةٍ الْمَغْرَى
 نَبِيلَهُ... يَا جَمِيلَةَ
 نَعْمَةٌ قُدُسِيَّةٌ الْمَغْرَى نَبِيلَهُ
 يَا جَمِيلَةَ

نَعْمَةُ رَائِعَةِ الْمَعْنَى جَمِيلَةً
مِنَ الْقُلُوبِ الْأُمَّهَاتِ
فِي بِلَادِ الْعَرَبِ (27).

أما الشاعر "خضر عباس الصالحي" في قصيدته "إلى أختي جميلة" فهي : فخر العرب، وهي لحن عميق عمق البحار، تسمع أصداءه من كل مكان وأنه سيبقى يرن عبر الأزمان، وأنها أمل مرتقب فيقول :

أُخْتِي جَمِيلَةٌ فَخَرُ الْعَرَبِ بَنَيْتَ لَكَ الْمَجْدَ فَوْقَ الشُّهْبِ
كَفَرْتَ بِعَيْشِ الْهُوَانِ الْبَغِيضِ وَفِي جَانِبِكَ يَمْوُجُ اللَّهَبِ
وَأَصْبَحْتَ لَحْنًا عَمِيقُ الصَّدَى سَيَبْقَى يَرْنُ يَسْمَعُ الْحَقَّابِ
بَارِضِ الْجَزَائِرِ أَرْضُ الْكِفَاحِ صَفَعْتَ الْجَنَّةَ بِسَوْطِ الْعَصَبِ
هُنَاكَ بِأَفْقِ الصَّرَاعِ الْعَيْنِدِ تَأَلَّقْتَ كَالْأَمَلِ الْمُرْتَقَبِ (28)

في حين نجد الشاعر "أحمد عبد المعطي حمادي" يوجه نظره إلى الداخل إلى عذاب جميلة الداخلي فيقول :

كَانَ اسْمُهَا جَمِيلَةً
أَفْذِيَّةٌ مِنْ سَمَى
الْوَجْهِ وَجْهَ طِفْلةٍ لَمْ تَتْرُكِ الْأُمَّا
وَالْعَيْنُ عَيْنَ سَاحِرِهِ
كَانَ اسْمُهَا جَمِيلَةً (29)

فنجد شاعرنا هنا يسقطها على جيله المشتت والمستعمر والمقهور، دون أن يلمس قداسة الرمز في جميلة ودون أن ينزلها إلى مصاف البشر، ولهذا نجده يكثر من الفعل الماضي "كان" ربما لرغبته في السمو بالرمز فوق الزمان والمكان.

*جميلة بوحيرد رمزا كليا :

ونقصد به "طريق تجميع الصور الفرعية بغزارة حول مجاز رئيس حتى يمكن ترجمة انطباع حسي معين إلى نوع آخر من الانطباع الحسي بحيث يصبح الانطباعان معا رمزا لخاطرة أصلية". (30)

فالقصائد التي تعتمد هذا النوع من الرمز تتسم بقدر كبير من التعقيد والغموض ولا تتبين ملامحه وهذا ما نعني به بالرمز المركب أو الكلي الذي تفيض فيه القصيدة بالصور الجزئية التي تشكل لنا رمزا كلياً رئيساً تصبح فيه القصيدة في صورتها "الكلية أشبه بقناع لغوي لشتات فكري ينبثق في تيارات لا تدرك منفصلة، وإنما بتلاحق البنى اللغوية، وتتابع الصور الإيحائية كل ذلك يتم في حلقات تتغير بتغير حركة الصور بحسب مرورها في الذهن" (31).

وهذا النوع من الرموز هو ما يسعى إليه معظم الشعراء المعاصرين، كونه يخدم تجاربهم الشعرية ويتوافق مع تطلعاتهم ورؤاهم لذلك يعمدون الغموض والتعقيد مما يفسح المجال للمتلقي للتأويل وإعطاء الدلالات المختلفة، ومن الشواهد على ذلك قول الشاعر العراقي "بدر شاكر السياب" في قصيدته الموسومة بـ "إلى جميلة بوحيرد" يقول:

لَا تَسْمَعِينَ... إِنَّ أَصْوَاتِنَا
تُخْزِي بِهَا الرِّيحَ الَّتِي تُنْقَلُ
بَابٌ عَلَيْنَا مِنْ دَمٍ مُقْفَلٍ (32)

استهل الشاعر هذه الأبيات بمفارقة عجيبة لأن صنيع هذه المرأة فاق كل الحدود، فهو مجروح بداخله، احساس بالعار بالخل والوجع- قل ما شئت- ؛ إنها امرأة أحس الشاعر بعجزه وعجز صوت كل الشعراء للتعبير عن صنيع هذه البطلة "جميلة"؛ لأن بطولاتها لا أحد يستطيع أن يصدق ما عانتها، وما قامت به يقول :

حَنُّ فِي ظُلُمَاتِنَا نَسْأَلُ
مَنْ مَاتَ؟ مَنْ يُيَكِّيه؟ مَنْ يُقْتَلُ؟
مَنْ يُصْلَبُ الْخُبْرُ الَّذِي نَأْكُلُ؟
إِلَى غُرْبِ الْوَحْشِ الَّذِي يُطْعَمُونَ

مَنْ أَكْبَدَ الْمَوْتَى ، فَمَنْ يَبْذُلُ
يَا أُخْتُنَا الْمُسَبُّوحَةَ الْبَاكِيَّةَ ،
أَطْرَافِكَ الدَّامِيَّةِ
يَقْطُرُنِي قَلْبِي وَيَكِينُ فِيهِ" (33)

إنها صورة مفجعة مبكية لكل عربي ؛ بل لكل العالم تجسد هذه المرأة ملحمة ستبقى في الذاكرة إنها بطلة أبهرت الجميع فلتكن مثالا يضرب في الشجاعة ؛إنها بطلة جزائرية أثبتت للعالم أن الحرية تؤخذ ولا تعطى ، فليكتب التاريخ من ذهب اسم هذه المرأة. ثم يرحل بنا الشاعر إلى صورة أخرى أكثر كثافة حين يعانق التاريخ لاستحضاره كعادل موضوعي لتجربة هذه المرأة الأسطورة التي قدمت حياتها لأجل استقلال وطنها، صورة المسيح يقول :

عَبَّءٌ مِنْ الْأَجَالِ مَا أَثْقَلَهُ !
كَمْ حَاوَلَ الْجَلَادُ أَنْ يُنْزِلَهُ
كَمْ وَدَّ أَنْ تَلْقِيَهُ إِذْ تَعْجَزِينَ
مَسْبُوحَةُ الْأَطْرَافِ فَوْقَ الصَّليبِ
مَسْبُوحَةُ الْعَيْنَيْنِ عَبْرَ الظَّلَامِ (34)

استحضر الشاعر هنا صورة المسيح عليه السلام- الذي صلب ليكون رمزا للفتداء وقربانا لبني الإنسان، فهذا الاستحضار لم يكن عبثا وإنما لإبراز مكانة الوطن في قلب الإنسان الجزائري عموما والمرأة على وجه الخصوص إنها كل شيء في هذا الوجود ؛ إنها المتنفس الذي يتنفس الحرية ، ولا يحس بذلك إلا من حرم منه. وحاول الشاعر المزج بين الحادتين ليقف عاجزا مذهولا مما حوله، إنه عبء على الشاعر على الأمة جمعاء وعبء ثقل لا يستطيع أن يحمله وكيف لهذه الإنسانية أن تكون قربانا وفتداء لثورة عظيمة؛ إنها ثورة الجزائر، إنها جميلة بوحيد الثائرة الفدائية المناضلة . ثم يرحل بنا إلى عالم الأسطورة ، إلى الحضارة البابلية أين يعانق أسطورة عشتار آلهة الحب والعشق والجمال التي يعشقها الجميع ويتقرب إليها إلى حد العبادة يقول الشاعر:

صَوْتُ قَوِيٍّ مِنْ فَقِيرٍ نَبِيٍّ
أَلَوَى يَبْغِي الصَّخْرَ، لَمْ يَضْرِبْ،
وَحَطَمَ الشَّجَانَ، أَيُّ انْطِلَاقِ.
فِي مِصْرَ، فِي سُورِيَّةَ، فِي الْعِرَاقِ؛
فِي أَرْضِكَ الْخَضْرَاءَ، كَأَنَّ انْعِتَاقَ !
بِالْأَمْسِ وَارَى قَوْمَكَ الْأَلْهَةَ

عَشْتَارَ، أُمُّ الْخَضْبِ وَالْحُبِّ وَالْإِحْسَانِ، تِلْكَ الرِّبَّةُ الْوَالِهَةُ
لَمْ تُعْطِ مَا أُعْطِيَتْ، لَمْ تُرَوْ بِالْأَمْطَارِ مَا رُوِيَتْ، قَلْبُ الْفَقِيرِ،
لَمْ يَعْرِفِ الْحِفْدَ الَّذِي يَعْرِفُونُ (35) .

معروف أن الشاعر منفتح على الميثولوجيا الإغريقية ، فهو يذكرنا بقصيدته
الخالدة (عَيْنَاكِ عَابَتَا نَحِيلَ سَاعَةَ السَّحَرِ) فاستحضار عشتار آلهة الخصب والحب في
الحضارة العراقية التي كان يتعبد لها الناس طمعا لنزول المطر والغيث والخصب، كمعادل
موضوعي لرمز جميلة رمز العطاء والتضحية والتضال من أجل الوطن.

وعلى العموم فإن هذا الرمز فيه من الرحابة والانساع ما يجعل التأويل حافزا يمنح
القصيدة حيوية وحركية وجالية البحث عن الدلالات المختلفة، وهو غاية الشعراء كما لا
يسعنا في هذا المقام التأويل لكل ما هو رمز .

الخاتمة:

ونخلص مما سبق إلى الآتي :

- تعد الثورة الجزائرية رمزا لكل الثورات في العالم رمزا للحرية ؛ لأن الحرية تؤخذ ولا
تعطى ، كما تعد جميلة بوحيرد رمزا للمرأة الثورية المتحررة رغم القيود .
- ألهمت الجميلات الثلاث الشعراء والمبدعين من خلال الملاحم التي سطرناها بالعذاب
والنار إلى حد الأسطورة والرمز بطولية وتضحية .
- إن الجزء الأعم من القصائد التي اتخذت "جميلة " موضوعاً لها جاء فيها توظيف الرمز
جزئياً كون الصورة فيه أقرب إلى الإشارة المباشرة منها إلى الغموض والتعقيد ، وفي هذا

النوع من الرمز كانت جميلة مرادفا لشيء محسوس أو لمسمى علم يضرب بجذوره في التاريخ.

– جاء توظيف الرمز الكلي لجميلة بوحيرد غاية جلّ الشعراء المعاصرين؛ لأنه يخدم تجاربهم الشعرية التي تعتمد الغموض والتعقيد مما يتيح للمتلقي آفاقا واسعة للتأويل .

الهوامش :

- (1) ينظر: الثورة الجزائرية في الشعر العربي (مختارات)، صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة بمناسبة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011 ، دار الأبحاث للنشر و التوزيع، ط 1 ، تلمسان، الجزائر، 2011، ص 05 .
- (2) ينظر: شريط أحمد شريط: كتاب جميلة بوحيرد، إصدار وزارة المجاهدين بدعم الأستاذة خليدة تومي، ردمك، موفم للنشر، (د.ط)، الجزائر، 2012، ص 11، 12.
- (3) ينظر: شريط أحمد شريط: جميلة بوحيرد، ص 406، 407.
- (4) ينظر: نفسه، ص 408.
- (5) ينظر: شريط أحمد شريط، جميلة بوحيرد، ص 511.
- (6) ينظر: الثورة الجزائرية في الشعر العربي مختارات، ص 14.
- (7) سليمان العيسى، الديوان ، دار العودة، بيروت، ص 133.
- (8) عثمان سعدي: الثورة الجزائرية في الشعر السوري، ج 2، منشورات وزارة المجاهدين، طبعة خاصة، (د.ت)، ص 495، 496.
- (9) ينظر: محمد خليفاتي: مساهمة المرأة في عملية التحرير (الجماليات الثلاث)، (الملتقى الوطني)، دورة المرأة الجزائرية في عملية التحرير وإسهاماتها في الحركة الأدبية والفنية، يومي 8 و 09 مارس، 2015، جامعة الدكتور يحيى فارس، المدينة، كلية الآداب واللغات ،قسم اللغة العربية ، ص 10.
- (10) رماني إبراهيم: الغموض في الشعر العربي الحديث ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 1 ، (د.ت)، ص 273.
- (11) ابن منظور: لسان العرب، مج 5، مادة (ر، م، ز)، ص 356.
- (12) سورة آل عمران، الآية (41).
- (13) محمود بن عمر الزمخشري: "الكشاف"، عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ضبط وتوثيق: أبي عبد الله الراقي بن منير آل زهري)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج 1، 2006، ص 276.

- (14) أبو الفرج قدامة بن جعفر: نقد الشعر (تحقيق وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ص154.
- (15) نفسه، ص155.
- (16) اسماعيل عز الدين: التفسير النفسي للأدب، دار العودة، بيروت، ط1، 1981، ص106.
- (17) الثورة الجزائرية في الشعر العربي (مختارات)، ص63، 64.
- (18) الثورة الجزائرية في الشعر العربي (مختارات)، ص64، 65.
- (19) فتوح محمد أحمد: الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1984، ص203.
- (20) أحمد يوسف: تقييم النص الجينالوجيا الضائعة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2002، ص5.
- (21) الثورة الجزائرية في الشعر العربي (مختارات)، ص65.
- (22) خالد سليمان: ظاهرة الغموض في الشعر الحر، مجلة فصول، م7، ع1-2، 1986، ص70.
- (23) ينظر: فتوح محمد أحمد، الرمز والرمزية، ص36.
- (24) ينظر: فتوح محمد أحمد، ص85.
- (25) شريط أحمد شريط: جميلة بوحيرد، ص23.
- (26) فتوح محمد أحمد: الرمز والرمزية، ص226.
- (27) عثمان سعدي: الثورة الجزائرية في الشعر العراقي، ج1، ص360، 361، 362.
- (28) شريط أحمد شريط، جميلة بوحيرد، ص52.
- (29) أحمد عبد المعطي حجازي، الديوان، دار العودة، بيروت، 1973، ص261.
- (30) نسيب نشاوي: المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص2.
- (31) رجاء عيد، لغة الشعر، قراءة في الشعر العربي المعاصر، منشأة المعارف، مصر،

2003، ص37.

(32) الثورة الجزائرية في الشعر العربي (مختارات)، ص364.

(33) نفسه، ص364، 365.

(34) الثورة الجزائرية في الشعر العربي (مختارات)، ص366.

(35) نفسه، ص368.